

١ - الأدباء

للمستأذنة عطفة السبخ

تختلف عقول الناس باختلاف وجوههم ، فكما لا يتشابه وجهان تشابهها
 تاما كذلك لا يتشابه عقلاان ، غير أن صفات عامة تشترك فيها عقول طائفة
 من الناس لا يحدون بجنس ولا زمان ، فيكونون جنسا عقليا واحدا ، ويسمى بهم
 الناس باسم عام يشملهم : كالأدباء ، والفلاسفة ، والعلماء ، والرجعيين ، والمجددين . . .
 وسنتكلم عن الطبيعة العقلية العامة لكل طائفة من هؤلاء في مقالات متتابعة
 إن شاء الله ، ومقال اليوم خاص بالكلام عن عقلية الأدباء أو التكوين النفسى
 للأديب أو الشاعر .

ونريد بالأديب هنا منشىء الكلام الجميل أو حائك الكلام الرائع ، فنحن
 نضيق معناها ونقصره على الناحية الإيجابية للأديب ، وهذا اللفظ يشمل
 الشاعر والنثر الفنى ، إذ لا فرق فى الحقيقة بين إنتاجهما إلا فى الوزن والقافية ،
 ومرادنا بروعة الكلام وجماله شعرا كان أم نثرا قدرة الأديب على التعبير ،
 وهى المقدرة الفنية على نقل القارىء إلى جو القائل ، وبقدر هذه المشاركة العقلية
 بين القائل والقارىء يختلف التعبير قوة وضعفا :

١ - تمتاز عقلية الأديب بقوة المظاهر النفسية الثلاثة : الوجدان ، والفكر ،
 والإرادة ، وقد يبدو هذا رأى غريبا ، إذ المعروف أن الشعراء يمتازون
 بقوة الوجدان فقط ، والذى حبا الناس إلى هذا الظن أن الشعراء يعتمدون

في التأثير والتأثر على الناحية الوجدانية ، ولكن العواطف العالية التي يمثلها الشعراء لا يمكن أن تتكون إلا بعد فكر عميق ونظر دقيق ، والعاطفة عند غير الشعراء نجدها عمياء ، خرساء وأما عندهم فهي مميزة معقدة بنور العقل والفكر . فروع المقابر ، ووحشة الليل ، وحب الوطن ، والشهامة ، والحب كلها أشياء مدركة عند الشعراء وغيرهم ولكنها أوضح منها وأدق تميزا عند الشعراء — قدمنا أن الشاعر والناثر الفني بمعنى — ولذلك تراهم يستطيعون توضيحها لنا بعد إبهامها ، وهذا هو سر حبنا للآدب ، فالشاعر يحس إحساس الناس ثم هو بقوة فكره وتذكره وخياله يصل إلى العلل والأسباب ، ويفرق بين القشور واللباب ، فيبين للناس الأسرار التي خفيت عنهم ، ويعبر لهم عما لم يستطيعوا معرفة كنهه ، فهو كالطبيب الذي يشخص الداء ويقدر وظائف الأعضاء ويفرق بين العلة والمعلول ، أو كالمهندس الذي يجيد التقسيم والتفصيل ويقدر العرض والطول ، ويتصور الصغير كبيرا حتى يقسمه ، والكبير صغيرا حتى يدركه ، ولا تنس أن الاستعارة والتشبيه محتاجان إلى القياس وهو من أدق عمليات الفكر ، ولابد للأديب من قوة الحفظ والذكر ، لأنه يلتقط كل ما يحس به ويحفظه بدقة ، ومن المعلوم أن توضيح الفكرة للسامع يستلزم وضوحها وفهمها في نفس القائل . والأديب يعبر لنا عما يحس به صدرنا ، ولا ينطق لساننا فهو من هذه الناحية أشد منا فهما وأقوى فكرا ، وإذا بحثنا في الواقع وجدنا أن الأدباء أذكى الطبقات في جميع العصور والأزمان . وأما قوة إرادة الأديب فتظهر في سلطته على نفسه وحواسه ، وقوته على الإيحاء إلى غيره والتسلط على نفسه فهو من هذه الناحية كالمنوم المغناطيسي ولكنه بشكل مصغر ، فإذا كان قائد الجيش قوى الإرادة على جنوده فالأديب قويا على فكره وأفكار الناس .

ولعل في هذا كفاية للرد على من يزعمون ضعف تفكير الأدباء وإرادتهم.

٢ — تتجه عقلية الأديب إلى الأشياء العامة التي تهتم الناس جميعاً ووقع فيها الناس جميعاً أو يدركها الناس جميعاً حتى ولو إدراكاً كلياً غامضاً وهذا هو السر في أن الأدب فن من فنون الجمال، لأن جميع الفنون الجميلة عامة الشكل والموضوع فأحبها الناس، وبقدر سهولة إدراكها يكون الاعتراف بها فناً جميلاً، ومن هنا كان أول فنون الجمال شيعوا الموسيقا وآخرها الأدب لكثرة الفاهمين للأول وقتلهم للأخير، وعلى عكس ذلك قدرة الفن على التأثير فمع قلة المقدرين للجمال الأدب تجده أشد تأثيراً فيهم من الموسيقى في الجماهير، إذ الشعور بجمال الأدب نوع من الأدب ولا يقدر الجمال الأدبي إلا مزاج أديب، وهو مؤثر في الفكر قبل الحواس فهو من حيث الكيف أعلى فنون الجمال، ولذلك يقول العلماء إن الفكر كلما تقدم كان سروره بالمعنويات أشد. فالعبقري يسر بتخيل الورد أكثر مما يسر برؤيتها، ومن هنا كان تأثير الأدب في فاهمه أكثر من تأثير الحقيقة التي يحكيها الأدب، فأنت تسر بوصف البستان من أديب ماهراً أكثر مما تسر من البستان نفسه.

٣ — عقلية الأديب دائماً تتصور نفسها قطعة من جسم كلي هو الكون وما فيه فهي مترنمة مع كل شيء في الوجود، أو هي الصورة الصغرى للعالم الأكبر وما فيه، تناجي كل شيء، ويناجيها كل شيء إذا ملت الناس أنجذبت نحو الطبيعة وإذا سئمت الطبيعة الأرضية سرت إلى الملاء الأعلى وما فيه، وإن أبكها شيء راحت تستبكي جميع النفوس، وإن طربت لمعنى طارت تغنى به ليشاركها في اللذة كل الوجود.

ومن هنا كثرت شكايات الأدباء من الناس والزمان والمكان، لأنهم

مهتمون مخلصون لكل شيء فهم يودون أن يهتم بهم ويخلص لهم كل شيء ،
ولكن ليس كل شيء أدبيا !

٤ — مواهب الأديب طبيعة فطرية فلا يمكن خلاق أديب بالكسب
دون الفطرة ، وليست هذه الفطرة مولودة دائمة ، فقد يحدث للمفطور على
الأدب ما يذهب بهذه الملكة وقد يجد على النفس غير الشاعرة شيء يجعلها
شاعرة ، ومن هنا كان الأديب مدفوعا للأدب ، لا يحمل نفسه عليه بل تحمله
نفسه إليه حملا ، سأل تليذ أستاذه في الأدب أأصلح أدبيا ؟ فقال له
إذا رأيت نفسك حين تريد الكتابة لا تستطيع أى قوة أن تمنعك عنها فاعلم
أنك أديب . ولذلك تعرض كثير من الأدباء للإيذاء بسبب منهجهم ولم يكفوا
إذ المساكين ليسوا مخيرين ، والواقع أن التنفيس عن هذا الدافع هو كل أجر
الأديب ، فلن يستفيد من تخليد اسمه شيئا ، ولن يقبض من إعجاب الناس ثمنا ،
ولن يزداد من مجهوده معرفة لأنه لا يقول إلا ما يعلم ، فهو مدفوع بقوة الفن
للتنفيس عن رغبة جاححة .

٥ — لا بد للأديب من أن يكون متعمقا في اللغة التي يعبر بها ، واللغة
ألفاظ تعبر عن محسات الأمة ومعانيها ، فهي مجمع التقاليد ووعاء المعارف
وخزانة الأدب والأمل ، فعنى القوة في لغة قوم الانسجام معهم والتجنس
بجنسيتهم ، والامتزاج الروحي بهم ، ولذلك تجد الأمم الناهضة تعنى بنشر
لغاتها ، ولقد فطن المستعمرون لهذه الناحية ، فأهم ما يتجه إليه همهم في قطر
مفتوح نشر لغتهم ليجنسوا القوم بجنسيتهم وينسوهم تقاليدهم ، ألم تر أن تعرب
البلاد المفتوحة للمسلمين كان على قدر معرفتها بلغة العرب ؟ ولذلك كان الأدباء
مظهرا لحضارة أممهم وممثلا صادقا لأحوال قومهم المعيشية والاجتماعية ،
ومصورا دقيقا لأحاسيسهم وماضيهم وحاضرهم وآمالهم ، لأن الأديب نموذج
مصغر لأمته وبيئته ، ألا ترى أنهم يدرسون بيئة الأديب ليفهموا
أقواله وميوله .

ولقد نشأ عن تأثر الأدب بالبيئة أن الآداب قديما كانت خاصة بأمتها ،
لا يهتم بها غيرها لأنه لا يدرك سر جمالها ، بخلاف حقائق العلوم ، فإنها كانت
مشاعة بين جميع الأمم ، فالعرب الذين ترجموا علوم الأمم لم يهتموا بنقل
آداب اللغات الأخرى ، ولم يرقهم شعر هو مير الذي يقدس اليونان والغرب ،
وأما الآن فقد تبدلت الأحوال وأصبحت الدنيا كلها مترجمة ، والكرة الأرضية
الآن أكثر اتصالا ببعضها ببعض من أجزاء مملكة واحدة في الزمن القديم ،
والقطر الواحد يحوى جميع الأجناس ويعامل جميع الناس ، فامتزج الأفراد
واختلطوا وعمت الأرض ثقافة واحدة فأصبحنا نفكر تفكيراً واحداً ، وتشابهت
نظم المعيشة ، واتحدت المثل العليا في جميع بقاع الأرض فأصبح الأدب الآن
عالمياً ، ولا فرق في منهج الأدب العام بين شاعر الصين وأديب أمريكا فاستساغ
الناس في هذا العصر ترجمة الآداب والتمتع بشمرات الأقلام ، كائناً من كان
الكاتب الأصلي ، والرائد العام لآداب الأمم هو الأدب الغربى ، ومثل هذا
ولكن بشكل مصغر حدث إبان اتساع النفوذ العربى . فان آداب العرب
وأشعارهم اكتسحت آداب الأمم المغلوبة وما جاورها فقلدوا شعر العرب في
فنونهم وأغراضهم وأوزانهم وقوافيهم (راجع شكوى الفاروقى إسبانيا ونشوء
الشعر القومى فى فرنسا)

٦ — عقل الأديب كالحياة لا يهتم بالمنطق ولا ينصاع لقانون فكري عام
فكل همه عند التعبير حمل القارىء على أن يشاركه في وجدانه وينتقل إلى عالمه
ولذلك تجدنا عند تقدير الأدب والأديب لا ننظر إلى صدق المعانى أو صحة
الافكار أو شرف الأغراض بل نقدره على قدرته على التعبير (سبق فى أول
المقال تفسيره) فهناك بعض الكتب العلمية موضوعاً . قامت البراهين على خطأ
كثير مما فيها ولكنها مع ذلك لا تزال حافظة لمركزها الأدبى العالى ككتاب
أصل الأنواع لداروين فى الأدب الإنكيزى ، ومقدمة ابن خلدون فى الأدب
العربى وكثير من كتب الجغرافيا والتاريخ القديمة ، ولهذا لا يبلى الأدب مهما
تطاول عليه الزمن ، ولأن قوة التعبير هى أهم خصائص الأسلوب الأدبى

ترانا نعتبر كثيرا من كتب العلوم كتباً أدبية . إذا ظهرت براعة المؤلف في قوة تعبيره فكتاب تاريخ التربية لمصطفى أمين ورحلة ابن بطوطة وكتب أحمد أمين وما ماثلها نعتبرها كتب أدب مع أنها ألفت لأغراض علمية بحثية . ومقالات العقاد ودياب وهيك في السياسة اعتبرناها أدبا لقوة تعبيرها كذلك .

٧ - حواس الأديب مرهفة ، وعقله حريص على الاستقصاء والحفظ فأصبح كالمخزن المزدحم بالسلع وتكاثرت في ذهنه الألفاظ وتجاورت فاختلطت ونشأ بينها أنساب وقرابات وتلوث كل منها بما جاوره فأصبح للألفاظ عنده معاني فرعية بها يمتاز لفظ عن لفظ وأصبحت تراكيبه كأنها مصبوبة صبا لا مؤلفة من كلمات مفردة فأسلوبه كالنهر المتصل لا كالقطرات المتباعدة ، وأنت تستطيع أن تميز الأسلوب الأدبي بسهولة إذا نظرت للألفاظ فوجدتها فيه مكتسبة جلالة وأوسع معنى وأكثر اهتزازا وأروع جوارا . وكذلك أصبح للمعنى عنده ألفاظ أكثر مما وضعت له يسميها العلماء تارة مجازا وطورا كناية وأخرى تشبيها ، ولقوة ربط المعاني وتداعيها عند الأديب واختلاط الألفاظ تجده يعبر عن المسموع بحاسة الذوق فيقول صوت عذب وعن المرئي بالمسموع فيقول لها لفتات موسيقية وهكذا تجد عقلية الأدباء من أسباب تطور الكلمات في اللغات وانتقالها إلى معان جديدة .

٨ - الحاجز بين الشعور والاشعور في عقلية الأديب غير يقظ ، ولعل من أسباب ذلك إجهاده لعقله وحواسه ، واستعداده الفطري ، فأصبحت أفكاره تثب إليه من وراء الشعور كأنها وحى ، فيسميها تارة إلهاما وأخرى أحلاما ، وهذا ما حدا العرب إلى الظن بأن كل شاعر شيطاننا كما أنه يفسر ما نراه من المزاج العصبي عند كثير من الأدباء .

عظيم الشيخ

معلبات القبة

أى أم رحيمة في ثيابه ؟

نشرت إحدى الصحف نبأ وفاة زميل كريم ، لم أعرفه في الحياة ،
وعرفته من خلاله بعد الوفاة ، فلقد قالت عنه : إنه كان دمث الأخلاق
جسم الصنائع ، مات والداه متعاقبين ، وخلفا له ذرية ضعافا أربعة أطفال
زغب الحواصل ، فرعاهم رعاية الأم الروم ، وحاطهم حياطة الأب
الرحيم ، ولكن القدر وافاه وهو يأخذ زيتته من يوم الجمعة ، فأنار
الخبر شجونى ، وأسأل شتونى ، فأرسلت ذلك الانين ، ومتى أجدى
بكاء الباكين ؟ ولكنها زفرات تخفف ، وقد كان الفقيد مدرسا
بمدرسة دمياط الصناعية .

حمل العبء مضنياً في شبابه	وبدا الصبر ماثلاً في إهابه
لم يخف عيلة ، ولم يخش ضنكا	بل سعى دائباً بعزيمة نابه
لا يهاب الويلات تبرى عليه	كل صعب يهون في تدآبه
يكدح الليل والنهار حثيثا	عزيمة الليث في ابتغاء رغبه
مات عنه أبوه ، ثم تولت	أمه . بعد برهة من مصابه
خلفاه ، والرزء رُزءان : هذا	دون ثان قد عبَّ من أوصابه
خلفاه ، وصية كلهم زغ	ب ، فما منهم قرين كتابه
همَّ كل دُمى بها يتسلى	زاهياً معجباً على أترابه
فإذا ما طوى النهار ظلام	عاد للدار مكثرًا من طلابه
فيسليهمُ إلى أن يناموا	أى أم رحيمة في ثيابه ؟
وإذا الشمس أسفرت قصد المع	هد يحيى الآداب في طلابه
حارب البؤس والشقاء فلم يخ	ضع لبؤس يحسد من آراهه

علما أن بؤسه فيه حزن لليتامي ، وذاك أقسى عذابه
 وإذا رازه السقام فقد استنقم كلاً من روحه وإهابه
 فهم روحه تشخ ضياء في شعاب الحياة بعد شعابه
 عاش في كدحه قرابة عشر بن وخمس لم يشك يوما مابه
 وأتى الموت فاستحى أن يرد به بيت أطفاله دون بابه
 فطواه الردى بعيداً عن الصبية ، حتى لا يفجعوا بمصابه

رب كفكف دموعهم بسرى فيواسيهم بفيض ثوابه
 رب بهرهم سبيل رشاد أن يضلوا في دهرنا من ذئابه
 رب واجعلهم لمصر سناء كل فرد يعزها باتسابه
 رب وارحم أخاهم أوسع الرحمه ، فلقد فاض في ربيع شبابه

عبد العظيم علي قناوى